بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فيقول الله -تبارك وتعالى -في هذه السورة الكريمة سورة البقرة: **(لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ(256)**

سبب النُّزول: عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما، قال: (كانت المرأةُ من نِساء الأنصار تكون مِقلاةً (أي: قليلة الوَلَد)، فتَجعَل على نَفْسها إنْ عاش لها ولدٌ أن تُهوِّدَه، فلمَّا أُجليتِ النَّضيرُ كان فيهم من أبناء الأنصار، فقالوا: لا نَدَع أبناءَنا؛ فأنزل الله تعالى: لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ..... الآية

مُناسبة الآية لِمَا قبلها: لَمَّا اشتملتْ آيةُ الكُرسيِّ السَّابقة على دلائل الوَحدانيَّة، وعظمة الخالق، وتنزيهه عن شوائبِ ما كَفرتْ به الأمم، كان ذلك من شأنه أنْ يسوق ذوي العقول إلى قَبُول هذا الدِّين الواضِح العقيدة، المستقيم الشَّريعة، باختيارهم دون جَبْرٍ ولا إكراه، ومِن شأنه أن يَجعلَ دوامَهم على الشِّرك بمَحَلِّ السُّؤال: أيُترَكون عليه، أم يُكرَهون على الإسلام؟ فكانت الجملة استئنافًا بيانيًّا (الدرر السنية)، فقال تعالى:

(لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ) أي: لا ينبغي أن تُرغِموا أحدًا على اعتناق الدِّين الإسلامي؛ إذ لا حاجةَ لذلك؛ فهو أمرٌ واضحٌ وجَلِيٌّ، قدْ تَميَّز من الضَّلال، وتبيَّنت أدلَّته، وظهرتْ حقائقه، فلا خفاءَ فيه ولا غموض، فمَن هداه الله تعالى له، وشرَح صدرَه، دخَل فيه على بيِّنة، ومَن أعمى الله قلبَه، فإنَّه لا يُفيده الدخولُ فيه مُكرَهًا عليه.

والمقصودُ: أنَّ دِين الإسلام من حيث هو، واضحةٌ فيه معالمُ الحقِّ، ويتمايَز بجلاء عمَّا سواه من الباطل، ممَّا يُوجِب اعتناقَه مِن قِبَل كلِّ مُنصِفٍ مُرادُه اقتفاءُ الحقِّ. موسوعة التفسير

قال ابن كثير في قوله تعالى :(لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ) أي: لا تكرهوا أحدا على الدخول في دين الإسلام فإنه بين واضح جلي دلائله وبراهينه لا يحتاج إلى أن يكره أحد على الدخول فيه، بل من هداه الله للإسلام وشرح صدره ونور بصيرته دخل فيه على بينة، ومن أعمى الله قلبه وختم على سمعه وبصره فإنه لا يفيده الدخول في الدين مكرها مقسورا. وقد ذكروا أن سبب نزول هذه الآية في قوم من الأنصار، وإن كان حكمها عاما.

عن ابن عباس قوله: (لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ) قال: نزلت في رجل من الأنصار من بني سالم بن عوف يقال له: الحصيني كان له ابنان نصرانيان، وكان هو رجلا مسلما فقال للنبي صلى الله عليه وسلم: ألا أستكرههما فإنهما قد أبيا إلا النصرانية؟ فأنزل الله فيه ذلك.

وعلى هذا القول فكيف الجمع بين هذه الآية وبين الآيات الآمرة بالقتال والجهاد؟

ذهب بعض العلماء: إلى عمومها وأنه لا أحد يكره على اعتناق دين الإسلام، وأما الآيات الأخرى الموجبة للجهاد فلا تتنافى مع هذه الآية، لأنها لم تأمر بإجبار أحد على اعتناق دين الإسلام، وإنما جاء فيها الأمر بالجهاد لإقامة النظام الإسلامي وتقريره وحمايته، ولدفع الأذى والفتنة عن المؤمنين.

قال سعيد مصطفى ذياب: آية تفند كل مزاعم المناوئين لدين الله تعالى، الذين مَلَأُوا الدنيا ضجيجًا: أن الإسلام انتشر بالسيف.

ولم يأتوا بحالة واحدة أُكره فيها أحدٌ على اعتناق الإسلام، وترك دينه الذين يدين به.

ويسجل التاريخ حالات لا حصر لها أكره المسلمون فيها على ترك دينهم، وإلا فالموت مصيرهم المحتوم.

وما حدث لبلال، وياسر، وسمية، وعمار، وخباب، وغيرهم لا يخفى؛ فعَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ عَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: أَخَذَ الْمُشْرِكُونَ عَمَّارَ بْنَ يَاسِرٍ فَلَمْ يَتْرُكُوهُ حَتَّى سَبَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَذَكَرَ آلِهَتَهُمْ بِخَيْرٍ ثُمَّ تَرَكُوهُ، فَلَمَّا أَتَى رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَا وَرَاءَكَ؟» قَالَ: شَرٌّ يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا تُرِكْتُ حَتَّى نِلْتُ مِنْكَ، وَذَكَرْتُ آلِهَتَهُمْ بِخَيْرٍ قَالَ: «كَيْفَ تَجِدُ قَلْبَكَ؟» قَالَ: مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ قَالَ: «إِنْ عَادُوا فَعُدْ». رواه الحاكم وقال: حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ

وما حدث في محاكم التفتيش مما تقشعر له الأبدان، وتشيب من هوله الولدان، لا ينكره أحد، أليس إكراهًا على اعتناق النصرانية.

وما حدث ويحدث لمسلمي الروهينجا من قتل وحرق وتهجير، أليس إكراهًا لهم على اعتناق البوذية، والتخلي عن دينهم؟

وما يحدث اليوم وإلى وقت كتابة هذه السطور من منع مسلمي الإيجور -في تركستان الشرقية المحتلة من قبل الصين -من إظهار دينهم ومصادرة مصاحفهم وكتبهم وكل ما يمت للإسلام بصلة، لهو خير دليل على أن السماحة لا وجود لها في غير الإسلام؛ لذلك سمي هذا الدين الإسلامي بالحنيفية السمحة .

هذا غيض من فيض ونقطة من بحر مما يقاسيه المسلمون في مشارق الأرض ومغربها من اضطهاد بسبب دينهم.

أليس هذا إكراها لهم على ترك معتقدهم، وتخليهم عن دينهم؟ ثم يخرج علينا من يزعم بأن الإسلام يكره الناس على الدخول فيه.سعيد مصطفى

(قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ) أي: تميز الحق من الباطل، والإيمان من الكفر، والهدى من الضلالة بكثرة الحجج والآيات الدالة. الرازي

قال البيضاوي: قوله تعالى (قَد تَّبَيَّنَ الرشد مِنَ الغي) تميز الإيمان من الكفر بالآيات الواضحة،ودلت الدلائل على أن الإيمان رشد يوصل إلى السعادة الأبدية والكفر غي يؤدي إلى الشقاوة السرمدية،والعاقل متى تبين له ذلك بادرت نفسه إلى الإيمان طلباً للفوز بالسعادة والنجاة، ولم يحتج إلى الإكراه والإلجاء.

(فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا) أي: إنَّ مَن جحَد ربوبيَّة الطَّاغوت وأُلوهيَّته المزعومتين، فتبرَّأ منه ومن عبادته وطاعته-والطَّاغوت: هو كلُّ ما تَجاوَز به العبدُ حدَّه، من معبود، أو متبوع، أو مُطاع-

وآمَن بالله تعالى وحده وجودًا ورُبوبيَّةً وأُلوهيَّةً، وبما له من أسماء حسنى، وصفات عُلا، فعبَده وقَبِل خبرَه، وأذْعن لطلبه واتَّقاه، ممتَثِلًا أمره ومجتنبًا نهيه، فإنَّه قد تَمسَّك تمسُّكًا شديدًا بأقوى رِباط، وأَحْكمِ أمر، وهو دِينُ الله تعالى الحقُّ المبرَم، وهو أَوثَق ما يُتمسَّك به لطلب العِصمة والنَّجاة، فيبقى ثابتًا على الحقِّ، مستقيمًا عليه، دون أن يَخشى انقطاعًا وانفكاكًا بخِذلان الله تعالى له وإسلامه إلى التَّهلُكة. موسوعة التفسير

(وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) مناسبتها لِمَا قبلها: لَمَّا كان الكُفْر بالطَّاغوت، والإيمانُ بالله تعالى مُتعلِّقًا بالنُّطق باللِّسان، واعتقاد القلب، قال تعالى

(وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) أي: إنَّ الله تعالى يسمعُ كلَّ شيء، ومنه سَماعُه إعلان من أعلن الكفرَ بالطاغوتِ، والإيمانَ باللهِ، وإعلان من أعلن خلافَ ذلك، ويعلمُ أيضًا كلَّ شيء سبحانه، ومن ذلك علمه بما في صدور خلقه مِن الإيمانِ والكفرِ؛ فيُجازي كلَّ واحدٍ منهم بحسب ما يَنطِق به لسانه، وما تُضمِره نَفْسه؛ إنْ خيرًا فخير، وإنْ شرًّا فشر. موسوعة التفسير

(فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ) أي: من خلع الأنداد والأوثان وما يدعو إليه الشيطان من عبادة كل ما يعبد من دون الله. ابن كثير

قال سعيد مصطفى: الإيمان لا يعرف المداهنة، والاعتقاد لا يقبل التلون، إنما هو استقامة ووضوح.

فإذا كنت تثني على البوذية، وتمدح النصرانية، وتعظم اليهودية، فأي إيمان هذا الذي تدين به؟

شرط إيمانك بالله تعالى ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نبيًا، أن تكفر بِالطَّاغُوتِ، وَالطَّاغُوتُ هو كل ما عبد من دون الله تعالى ورضي بذلك .

أما الطَّاغوت في الاصطلاح: فهو كلُّ شيءٍ عُبد من دون الله سبحانه وتعالى، ورضي بهذه العبادة من معبودٍ أو متبوعٍ أو مُطاعٍ في غير طاعة الله سبحانه وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم.

أن كل معبودٍ أو متبوعٍ أو مُطاعٍ في غير طاعة الله فهو طاغوت والحظ الأكبر من ذلك للشيطان

كما قال تعالى (أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ ۖ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (60) يس .

وقال (إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا (117) النساء.

وقال عن خليله إبراهيم (يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ ۖ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا) (44) مريم

(وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ) أي: وحد الله فعبده وحده، وشهد أن لا إله إلا الله، وفي هذا أن التوحيد لابد فيه من الكفر بالطاغوت وهذا معنى: لا إله إلا الله.

كما قال تعالى (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ (26) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ (27) الزخرف.

ففي هذه الآية معنى: لا إله إلا الله (إِنَّنِي بَرَاء مِّمَّا تَعْبُدُونَ، إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي) لأن كلمة التوحيد (لا إله إلا الله) تنطوي على نفي وإثبات، فعبر عن المنفي فيها بقوله (إنني براء مما تعبدون) وعبّر عن المثبت فيها بقوله (إلا الذي فطرني) ففيه تفسير التوحيد بإثبات العبادة لله وحده ونفيها عما سواه .

وقال تعالى (اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ) هذه الآية هي معنى (لا إله إلا الله) لأن التوحيد نفي وإثبات، النفي في قوله (واجتنبوا الطاغوت) والإثبات في قوله (اعبدوا الله)، ففيه إثبات العبادة لله وحده وبنفي عبادة ما سواه.

وقال ε (مَن قالَ: لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَكَفَرَ بما يُعْبَدُ مَن دُونِ اللهِ، حَرُمَ مَالُهُ وَدَمُهُ، وَحِسَابُهُ علَى اللَّهِ) رواه مسلم.

فلم يكتفِ باللفظ المجرد عن المعنى في قول: لا إله إلا الله، بل لابد من قولها مع اعتقاد معناها والعمل بمقتضاها وفي ضمن ذلك: الكفر بما سوى الله من المعبودات، وهذه هي حقيقة التوحيد.

أن البراءة من الكفر تكون بثلاثة أشياء: بالقلب، واللسان، والجوارح.

براءة القلب: وهو كراهة الكفر وأهله، وبغضهم وتمني زوالهم واعتقاد بطلان الكفر وتركه.

وحكمه: فرض لازم، ولا يسقط بحال من الأحوال، لأنه لا يتصور فيه الإكراه، لأن عمل القلب خفي.

(لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ....)22المجادلة

براءة اللسان: وهو التصريح باللسان على أن عبادة غير الله باطلة.

وحكمه: واجب.

لقوله تعالى (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ (26) الزخرف. ولقوله تعالى (قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (1) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (2) سورة الكافرون.

براءة الجوارح: وتكون بالجهاد وإزالة الكفر والكافرين وقتالهم، وهي مرتبطة بالقدرة والمصلحة.

ويسقط مع الإكراه وعدم الاستطاعة، لقوله تعالى (لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا).

قال ابن كثير في قول الله تعالى: (فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى) أي: فقد ثبت في أمره واستقام على الطريقة المثلى والصراط المستقيم، وقيل: فقد استمسك من الدين بأقوى سبب، وشبه ذلك بالعروة القوية التي لا تنفصم، فهي في نفسها محكمة مبرمة قوية، وربطها قوي شديد، وقيل : يعني الإيمان ، وقيل : الإسلام ، وقيل : لا إله إلا الله .**قال ابن كثير** : وكل هذه الأقوال صحيح ولا تنافي بينها .

قال أبو حيان: قال ابن عطية وقدّم ذكر الكفر بالطاغوت على الإيمان بالله ليظهر الاهتمام بوجوب الكفر بالطاغوت.

(**لا انْفِصَامَ لَهَا**) أي : لا انقطاع لها ولا زوال .

عَنْ قَيْسِ بْنِ عُبَادٍ قَالَ (كُنْتُ بِالْمَدِينَةِ فِي نَاسٍ فِيهِمْ بَعْضُ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ε فَجَاءَ رَجُلٌ فِي وَجْهِهِ أَثَرٌ مِنْ خُشُوعٍ فَقَالَ بَعْضُ الْقَوْمِ هَذَا رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ هَذَا رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ يَتَجَوَّزُ فِيهِمَا ثُمَّ خَرَجَ فَاتَّبَعْتُهُ فَدَخَلَ مَنْزِلَهُ وَدَخَلْتُ فَتَحَدَّثْنَا فَلَمَّا اسْتَأْنَسَ قُلْتُ لَهُ إِنَّكَ لَمَّا دَخَلْتَ قَبْلُ قَالَ رَجُلٌ كَذَا وَكَذَا قَالَ سُبْحَانَ اللَّهِ مَا يَنْبَغِي لأَحَدٍ أَنْ يَقُولَ مَا لاَ يَعْلَمُ وَسَأُحَدِّثُكَ لِمَ ذَاكَ رَأَيْتُ رُؤْيَا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ε فَقَصَصْتُهَا عَلَيْهِ رَأَيْتُنِي فِي رَوْضَةٍ – ذَكَرَ سَعَتَهَا وَعُشْبَهَا وَخُضْرَتَهَا – وَوَسْطَ الرَّوْضَةِ عَمُودٌ مِنْ حَدِيدٍ أَسْفَلُهُ فِي الأَرْضِ وَأَعْلاَهُ فِي السَّمَاءِ فِي أَعْلاَهُ عُرْوَةٌ . فَقِيلَ لِي ارْقَهْ، فَقُلْتُ لَهُ لاَ أَسْتَطِيعُ، فَجَاءَنِي مِنْصَفٌ –قَالَ ابْنُ عَوْنٍ وَالْمِنْصَفُ الْخَادِمُ – فَقَالَ بِثِيَابِي مِنْ خَلْفِي – وَصَفَ أَنَّهُ رَفَعَهُ مِنْ خَلْفِهِ بِيَدِهِ – فَرَقِيتُ حَتَّى كُنْتُ فِي أَعْلَى الْعَمُودِ فَأَخَذْتُ بِالْعُرْوَةِ فَقِيلَ لِيَ اسْتَمْسِكْ . فَلَقَدِ اسْتَيْقَظْتُ وَإِنَّهَا لَفِي يَدِي فَقَصَصْتُهَا عَلَى النَّبِيِّ ε فَقَالَ «تِلْكَ الرَّوْضَةُ الإِسْلاَمُ وَذَلِكَ الْعَمُودُ عَمُودُ

الإِسْلاَمِ وَتِلْكَ الْعُرْوَةُ عُرْوَةُ الْوُثْقَى وَأَنْتَ عَلَى الإِسْلاَمِ حَتَّى تَمُوتَ) قَالَ وَالرَّجُلُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلاَمٍ، متفق عليه .

(وَاللَّهُ سَمِيعٌ) لأقوال العباد، يسمع جميع الأصوات ويسمع السر والنجوى. **(عَلِيمٌ)** بأفعالهم، يعلم جميع الأمور الظاهرة والباطنة.

وسمع الله ينقسم إلى قسمين:

أولاً: سمع إدراك: أي أن الله يسمع كل صوت خفي أو ظاهر، قال تعالى: (قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي...). ⇦هذا السمع قد يراد به الإحاطة، كالآية السابقة.

❀وقد يراد به التهديد، كقوله تعالى: (قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاء...)181ال عمران.

❀وقد يراد به التأييد، ومنه قوله تعالى لموسى: (قَالَ لَا تَخَافَا ۖ إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ (46) طه أي أسمعك وأؤيدك.

ثانياً: سمع إجابة: أي أن الله يستجيب لمن دعاه. ومنه قول إبراهيم (إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاء) أي مجيب الدعاء. ومنه قول المصلي (سمع الله لمن حمده) يعني استجاب لمن حمده.

(اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) (257)

مُناسبة الآية لِمَا قبلها: أنَّ قوله تعالى: اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا..... الآية وقع موقِعَ التعليلِ لقوله: لَا انْفِصَامَ لَهَا؛ لأنَّ الذين كفروا بالطَّاغوت وآمَنوا بالله، قد تَولَّوُا اللهَ فصار وَلِيَّهم؛ فبذلك يَستمرُّ تَمسُّكهم بالعُروة الوُثقى، ويأمَنون انفصامَها، وبعكسهم الذين اختاروا الكُفْرَ على الإسلام، فإنَّ اختيارهم ذلك دلَّ على خَتْمٍ ضُرِبَ على قلوبهم، فلم يهتدوا، فهم يَزدادون في الضَّلال يومًا فيومًا. الدرر السنية

(اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ) أي: مَن آمَن بالله حقًّا، فإنَّه جلَّ وعلا يتولَّاه على الدوام، فيكون عونًا له ونصيرًا، ويؤيِّده ويوفِّقه، ويمكِّنه من التوغُّل شيئًا فشيئًا في طريق اليقين الأوحد، فيَخرُج من ظلمات الضَّلال، ويَخترِق حُجُبَ الشُّبهات والشَّهوات المظلِمة، فيَنكشِف له نورُ الإيمان واليقين، ويُؤتَى نَفاذَ البصيرةِ، ويتجدَّد له السموُّ في مقامات الإيمان، والصُّعود في درجات اليقين، فيُبصِر قلبُه حقائقَ الأمور أكثرَ فأكثر. موسوعة التفسير

قال الشنقيطي: هذه ثمرة ولايته تعالى للمؤمنين، وهي إخراجه لهم من الظلمات إلى النور بقوله تعالى (اللهُ وَلِيُّ الذين آمَنُواْ يُخْرِجُهُمْ مِّنَ الظلمات إِلَى النور) وبين في موضع آخر أن من ثمرة ولايته إذهاب الخوف والحزن عن أوليائه، وبين أن ولايتهم له تعالى بإيمانهم وتقواهم وذلك في قوله تعالى (ألا إِنَّ أَوْلِيَآءَ الله لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ الذين آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ) وصرح في موضع آخر أنه تعالى ولي نبيه ε وأنه أيضاً يتولى الصالحين وهو قوله تعالى (إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ (196)الأعراف **(اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا)** وهذا يشمل ولايتهم لربهم، بأن تولوه فلا يبغون عنه بدلا ولا يشركون به أحدا، قد اتخذوه حبيبا ووليا، ووالوا أولياءه وعادوا أعداءه، فتولاهم بلطفه ومنَّ عليهم بإحسانه، فأخرجهم من ظلمات الكفر والمعاصي والجهل إلى نور الإيمان والطاعة والعلم، وكان جزاؤهم على هذا أن سلمهم من ظلمات القبر والحشر والقيامة إلى النعيم المقيم والراحة والفسحة والسرور.السعدي وهذه هي الولاية الخاصة.

قال الشيخ بن عثيمين: والولاية التي من الله للعبد تنقسم إلى:

❶الولاية العامة هي: الولاية على العباد بالتدبير والتصريف، وهذه تشمل المؤمن والكافر وجميع الخلق، فالله هو الذي يتولى عباده بالتدبير لشؤونهم وتصريفها ويستوي في ذلك مؤمن وكافر، فمن بيده مقاليد الأمور في هذا الكون إلا الله سبحانه وتعالى ومنه قوله تعالى: {ثُمَّ رُدُّواْ إِلَى اللهِ مَوْلاَهُمُ الْحَقِّ أَلاَ لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ} [الأنعام:62].

❷والولاية الخاصة: أن يتولى الله العبد بعنايته وتوفيقه وهدايته، فقد يكون هناك طريق خيرٍ وطريق شرّ، فيهدي الله العبد الصالح إلى طريق الخير ويُجنّد له الجنود لنُصرته وتأييده، وهذه خاصة بالمؤمنين، وهي درجة رفيعة يختص الله بها من يشاء ويحب من عباده، قال تعالى: {أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ} [يونس:62-63].

⇦وهنا المراد الولاية الخاصة، وهذه خاصة بالمؤمنين مقتضاها النصر والتأييد والتسديد والتوفيق والإخراج من الظلمات إلى النور⇦كما قال تعالى (اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ).

وقال تعالى (ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ) (11) محمد وقال تعالى (أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (62) يونس، كما قال ε في الحديث القدسي (من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب) رواه البخاري.

وَفِي هَذَا النَّوْعِ مِنَ الْوِلَايَةِ الخاصة قَالَ ابْنُ تَيْمِيَّةَ أنها تكون لكل مؤمن بقدر ما معه من الايمان والتقوى: فَالظَّالِمُ لِنَفْسِهِ مِنْ أَهْلِ الْإِيمَانِ مَعَهُ مِنْ وِلَايَةِ اللَّهِ بِقَدْرِ إِيمَانِهِ وَتَقْوَاه.

قال تعالى (ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (32) فاطر

⇦كلما زاد الايمان وتقوى الله، زادت له الولاية والتأييد والنصر والهداية من الله، فالسابق بالخيرات له من الولاية ما يفوق المقتصد والظالم للنفسه، فالولاية تزيد بزيادة الايمان والتقوى، وتنقص بنقصان الايمان والتقوى.

⇦وحتى يظفر العبد بولاية الله، يجب أن يكون منه ولاية لله ورسوله وللمؤمنين: إذ يقول الله تعالى: {وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ} [المائدة:56].

⇦وفي تفسير هذه الآية: "إنه مَنْ وَثِقَ بِاَللَّهِ وَتَوَلَّى اللَّه وَرَسُوله وَالْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ كَانَ عَلَى مِثْل حَاله مِنْ أَوْلِيَاء اللَّه مِنْ الْمُؤْمِنِينَ، لَهُمْ الْغَلَبَة وَالدَّوَائِر وَالدَّوْلَة عَلَى مَنْ عَادَاهُمْ وَحَادَّهُمْ؛ لِأَنَّهُمْ حِزْب اللَّه، ولأنهم قوم انتصروا لله على أنفسهم، فحق أن يكونوا من حزب الله وأولئك هم الغالبون.الطبري

قال ابن القيم: فالولاية عبارة عن موافقة الولي الحميد في محابه ومساخطه، وليست بكثرة صوم ولا صلاة.

صفات أولياء الله: -أنهم أهل التقوى والأمن والبُشرى: قال سبحانه وتعالى: {أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [يونس:62-64].

⇦آمنوا بقلوبهم، واتقوا بجوارحهم، لا يجدهم حيث نهاهم ولا يفتقدهم حيث أمرهم.

لهم البشارة في الدنيا، فهي: الثناء الحَسن، والمودة في قلوب المؤمنين، والرؤيا الصالحة، وأما البشرى في الآخرة فهي بالجنة والرضوان من المولى عز وجل، والبُشرى لهم عند الموت.

من يريد أعلى درجات الولاية، عليه بفعل الواجبات والمستحبات، وترك المحرمات والمكروهات، وترك المباحات التي تشغل عن طاعة الله ورضاه.

وهؤلاء الأولياء الله سبحانه وتعالى يُجري على أيديهم الكرامات -الخوارق للعادة-تأييداً وتكريماً لهم.

فها هي مريم عليها السلام أكرمها الله سبحانه "بالرزق الطيب بأنواع الطعام والشراب، ووصوله إلى محرابها، وكذا ما أيدها الله به من الحمل من غير زوج، وظهور المساعدات الربانية عند الولادة، والرُّطب الجني من النخلة اليابسة، والنهر الصافي، وكذا نُطق عيسى في المهد أمام قومها".

كلها من المعجزات والكرامات التي يعطيها الله سبحانه وتعالى لكل من تقرّب إليه بالطاعات،وهناك مثالٍ آخر لأصحاب الكهف أكرمهم الله بكرامات كثيرة: "من نومهم المدة الطويلة ثلاثمائة وتسع سنين، وحفظ أجسامهم من التغيير وتقلبيهم في نومهم، وصرف الشمس عنهم، وقيامهم من نومهم بعد تلك

المدة".

✉كلها أمور تنطق أن لله جنود السماوات والأرض يسخرها لمن يشاء من عباده، ولكن اقترب وكن ايجابي في مواجهة الباطل وليس من الأنبياء والصديقين فقط إنما من السلف التابعين عندما يتيقن المسلم الله يرزقه من حيث لا يحتسب في أي زمانٍ ومكان.

✉تُروى كرامة لأبي مسلم الخولاني رحمه الله تعالى –وهو من سادة التابعين أيضاً– قالت له زوجته مرة: "ليس عندنا دقيق، فقال لها: هل عندكِ شيء؟ قالت: ليس عندي إلا درهم بعتُ به غَزْلاً، قال: أعطِنيه وهاتي الجِراب، فدخل السوق، فأتاه سائل، وألحّ عليه في السؤال، فأعطاه الدرهم، وعاد إلى بيته وقد ملأ الجرابَ نشارة خشب مع تراب، وأتى وقلبه مرعوبٌ من زوجته، وضع الجراب في البيت ومضى، فلما ذهب فتحتْه، فإذا به دقيقٌ أبيض، فعجنت الدقيق وخبزت، وجاء أبو مسلم الخولاني إلى بيته ليلاً، فقدّمتْ له الخبز، فقال لها: من أين لنا هذا؟ فقالت: من الدقيق الذي اشتريتَه اليوم، فأكل أبو مسلم الخولاني من الخبز الذي أصله نشارة خشب وتراب، وبكى. (سير أعلام النبلاء).

✉سعيد بن جبير يمسك به جنديان من جند الحجاج وبينما هم في الطريق إذ تنزل الأمطار وتلجئهم إلى صومعة راهب فيرفض سعيد أن يدخلها رفضا قاطعا فيتركانه في الأسفل ويصعدان فإذا بأسد يقترب من سعيد فيصرخون به من الأعلى أن اهرب فلا يحرّك سعيد ساكنا بل يظل في عالم من الذكر دافئ فيقترب الأسد أكثر ثم يصل إلى سعيد وكأنّه يهمس له همسا ثم ينصرف والجنود ينظرون بخوف والراهب ينظر بعين أخرى ويقول: هذا وليّ من أولياء الله.

📝والآن نسأل أنفسنا كم مرة سخّر الله لنا جنود يتولوا أمرنا ؟! هؤلاء الأولياء مجابي الدعوة: ألم يقل رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قال في الحديث القدسي: «وَإِنْ سَأَلَنِي لأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لأُعِيذَنَّهُ»، يا له من كرم رباني الذي يمنحه سبحانه وتعالى لأوليائه، وخاصةً أنه يُعطيهم درجةً عظيمة، ألا وهي: إجابة الدعاء.

📝هناك قصة أوردها الإمام ابن السُّبكي في كتابه (طبقات الشافعية)، وهي التي سمّاها (كرامة المحاميد) يقول: "كان ثلاثةٌ من العلماء في رحلة، وهم: محمد بن جرير الطبري وهو من الأعلام، ومحمد بن خُزيمة وهو من المحَدِّثين، ومحمد بن نصر المَرْوَزيّ وهو من الفقهاء، كانوا في رحلة فأرمَلوا –جاعوا–، ولم يبقى عندهم ما يَقوتهم وأضرَّ بهم الجوع، فاجتمعوا ليلةً في منزلٍ كانوا يأتون إليه، فاتّفق رأيُهم على أن يَسْتَهِموا ويضربوا القرعة، فمن خرجت عليه القرعة سأل لأصحابه الطعام، فخرجت القرعة على محمد بن خزيمة، فقال لأصحابه: "أمهِلوني حتى أتوضّأَ وأُصَلّيَ صلاةَ الاستخارة". فذهب يتوضّأ ودخل يُصلّي، فإذا هم بالشموع ورجالٍ من قِبَلِ الوالي يطرقون عليهم الباب، ففتحوا الباب، فقال الرجل: "أيكم محمد بن نصر المروزي؟"، فقال: أنا، فأعطاه صُرّةً فيها خمسون ديناراً، ثم قال: "أيكم محمد بن جرير؟" قال: "أنا"، فأعطاه صُرّةً مثلَ أخيه، ثم قال: "أيكم محمد بن خزيمة؟" قال: "أنا"، فأعطاه صُرّةً مثلَ أخَويه، ثم قال

لهم: "إن الأمير كان قائلاً بالمساء -نائماً نومَ القيلولة-، فرأى في المنام من يقول له: "إن المحاميدَ قد طَوَوا كَشْحَهُم -بطونهم جِياعا-"، فأَنْفَذَ إليكم هذه الصُّرَر، وأقسمَ عليكم إذا نَفِدَتْ فابعثوا إليه أحدَكم".

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) أي: إنَّ الكفار يتولَّاهم الطاغوتُ؛ فهو حليفهم الذي يؤيِّدهم ويُعينهم، ويُغوِيهم بدعوى نَصْرهم، وطَلَب فلاحِهم، ومن أعظم الطَّواغيت الشَّيطان؛ فإنَّه يُسلَّط عليهم؛ عقوبةً لهم، فيُزعِجهم إلى الضَّلال إزعاجًا، فيُخرِجهم من الإيمان- إنْ كانوا مؤمنين من قبل- أو يُخرِجهم من نور الفِطرة السَّليمة، أو يُزيِّن لهم مرَّة بعد مرَّة ما هم عليه من الكُفْر والشِّرك، فيَظلُّون باقين في تلك الحُجُبِ المظلِمة التي تزداد كثافةً، وتَحجُب عن أبصارِ قلوبِهم رؤيةَ حقائقِ الإيمان وأدلَّته وطريقه، إلى أنْ يَحينَ انتقالُهم إلى مُستقرِّهم الأخير، فيُلازِمون النَّارَ بلا نهاية، وبئس المصير. موسوعة التفسير

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ) أي: وأما الكافرون فأولياؤهم الشياطين.

قال الشيخ ابن عثيمين: وإذا تأملت هذه الجملة، والتي قبلها تجد فرقاً بين التعبيرين في الترتيب، ففي الجملة الأولى قال تعالى (اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا) لأمور ثلاثة:

أحدها: أن هذا الاسم الكريم إذا ورد على القلب أولاً استبشر به.

ثانياً: التبرك بتقديم ذكر اسم الله عز وجل.

ثالثاً: إظهار المنة على هؤلاء بأن الله هو الذي امتن عليهم أولاً، فأخرجهم من الظلمات إلى النور.

وأما الجملة الثانية (وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ) ولو كانت على سياق الأولى لقال: والطاغوت أولياء الذين كفروا، ومن الحكمة في ذلك:

أولاً: ألا يكون الطاغوت في مقابلة اسم الله.

ثانياً: أن الطاغوت أهون وأحقر من أن يُبدأ به ويقدّم.

ثالثاً: إن البداءة بقوله (وَالَّذِينَ كَفَرُوا) أسرع إلى ذمهم مما لو تأخر ذكره.

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ) (يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ) أي: يخرجونهم من نور الإيمان إلى ظلمات الشك والضلالة.

فتولوا الشيطان وحزبه، واتخذوه من دون الله وليا ووالوه وتركوا ولاية ربهم وسيدهم، فسلطهم عليهم عقوبة لهم فكانوا يؤزونهم إلى المعاصي أزا، ويزعجونهم إلى الشر إزعاجا، فيخرجونهم من نور الإيمان والعلم والطاعة إلى ظلمة الكفر والجهل والمعاصي، فكان جزاؤهم على ذلك أن حرموا الخيرات، وفاتهم النعيم والبهجة والمسرات، وكانوا من حزب الشيطان وأولياءه في دار الحسرة، فلهذا قال تعالى:(أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) السعدي

وسميت الظلمة بذلك لأنها تحجب الأبصار عن إدراك الحقائق، كما يحجب الكفر والمعاصي والجهل

النور عن القلوب، وسمي الإيمان والطاعة والعلم، نوراً لأنه ينير البصيرة والبصر ويجلي الظلمات عن القلوب والابصار.

والاسلام هو النور، لذلك كل من أطاع رسول الله ε فيما جاء به من القرآن والسنة، خرج من ظلمات الكفر والمعصية والجهل إلى نور الايمان والطاعة والعلم شاء أم أبى، وكل من عصى رسول الله ε خرج من النور الى الظلمات، شاء أم أبى .

قال الشنقيطي: المراد بالظلمات الضلالة، وبالنور الهدى، وهذه الآية يفهم منها أن طرق الضلال متعددة لجمعه الظلمات وأن طريق الحق واحدة لإفراده النور، وهذا المعنى المشار إليه هنا بينه تعالى في مواضع أخر كقوله (وَأَنَّ هذا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فاتبعوه وَلاَ تَتَّبِعُواْ السبل فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ).

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية ما نصه: ولهذا وحد تعالى لفظ النور وجمع الظلمات، لأن الحق واحد والكفر أجناس كثيرة وكلها باطلة كما قال (وَأَنَّ هذا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فاتبعوه وَلاَ تَتَّبِعُواْ السبل فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذلكم وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) وقال تعالى (وَجَعَلَ الظلمات والنور).

وقال ابن القيم: والمقصود أن طريق الحق واحد إذ مرده إلى الله الملك الحق وطرق الباطل متشعبة متعددة، فوحد ولي الذين آمنوا وهو الله الواحد الأحد، وجمع الذين كفروا لتعددهم وكثرتهم وجمع الظلمات وهي طرق الضلال والغي لكثرتها واختلافها ووحد النور وهو دينه الحق وطريقه المستقيم الذي لا طريق إليه سواه.

⇦الحذر من دعاة الضلال الذين يخرجون الناس من النور إلى الظلمات.

(**أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ**) الملازمون لها ملازمة الصاحب لصاحبه، والغريم لغريمه، لأن الأصل في الصحبة طول الملازمة .السعدي

⇦والنار هي الدار التي أعدها الله للكافرين.

قوله تعالى (أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ) وهذا الأسلوب يطلق على الذين يخلدون فيها، فالمؤمن العاصي – وإن كان يستحق العذاب بالنار – فإنه لا يسمى من أصحاب النار، لأن الأصل في الصحبة طول الملازمة.

(هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) لا يخرجون منها، ولا يفتر عنهم العذاب ولا هم ينصرون. السعدي

قال الشيخ صالح آل الشيخ في شرح الطحاوية: الخلود في النار نوعان: خلودٌ أمدي إلى أجل، وخلودٌ أبدي، والخلود الأمدي: هو الذي تَوَعَّدَ الله به أهل الكبائر، والخلود الأبدي، المؤبد: هو الذي تَوَعَّدَ الله به أهل الكفر والشرك.

⇦وقد ذكر الله تأبيده في ثلاث آيات من القرآن الكريم.

⇦في سورة النساء: قال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا (168) إِلا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (169) النساء.

⇦وفي سورة الأحزاب: قال تعالى (خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (65) الأحزاب.

وفي سورة الجن: قال تعالى (وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا (23) الجن.

قال سعيد مصطفى : إذن الإيمان أن توالي الله تعالى، وأن توالي أولياء الله تعالى، والهدى أن يتولاك الله تعالى.

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَوْثَقُ عُرَى الْإِيمَانِ الْحَبُّ فِي اللَّهِ وَالْبُغْضُ فِي اللَّهِ». رواه أحمد بسند حسن

والخيبة والخسران أن يوالي أحدٌ أعداءَ الله، والكفر والضلال أن يتولاه أعداءُ الله؛ ﴿يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ .

فاحذرْ أَنْ توالي لله عدوًا؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ﴾. سورة الْمَائِدَةِ: الآية/ 78

واحذر أن يرضى عنك أعداء الله، ولا تفرح إذا أثنوا عليك، وراجع إيمانك إذا وصفوك بالاعتدال؛ ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾. سُورَةُ البَقَرَةِ: الآية/ 120

ولا ترج منهم نفعًا، ولا تخش منهم ضررًا، ولا تباليهم بالة، فأنت وليك الله، والعز في كنفه، والعاقبة لأوليائه، وهم أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ، والذل حليفهم، والخسار مآلهم.